بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢- ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤- ٧ أيلول ٢٠٠٧م

المحبة هي سر الجاذبية في الإسلام

الأستاذ الدكتور مصطفى محقق داماد

عمّان – المملكة الأردنية الهاشمية

المحبة هي سر الجاذبية في الإسلام

أ.د. مصطفى محقق داماد

لا شك في أن بالإمكان العثور على عنصر مشترك لانتشار الدين الإسلامي الحنيف ونفوذه في المجتمعات المختلفة على الرغم من وجود الاختلاف وتنوع الأزمنة والأمكنة. فالعنصر المشترك لنفوذ الإسلام وانتشاره المدهش في البلدان المترامية الأطراف وخلال فترة زمنية قصيرة جداً ليس سوى تأمين وتوفير أكثر حاجات الإنسان شيوعاً، وذلك بشهادة الوثائق والمصادر المعتبرة.

وإذا ما احتجنا إلى تقديم الشواهد والمستندات القديمة لإثبات هذا الادعاء فيما يتعلق بأحداث القرون الإسلامية الأولى، فإننا لسنا مضطرين إلى أن نسلك طريقاً طويلاً من أجل استعراض الميول الباعثة على الإعجاب والدهشة للمفكرين الكبار في القرون الأخيرة والذين اعتنقوا الدين الإسلامي بملء إرادتهم وحريتهم وبعد دراسة معمقة لتعاليم الأديان المختلفة والمقارنة بينها، والذين صمدوا برؤوس مرفوعة، رغم الضغوط السياسية والانتقادات الحادة لأبناء دينهم السابق وأعلنوا عن أن التعاليم والمعطيات الإسلامية كانت تشكل الحافز لهم.

وإذا ما واجهنا النقاشات والادعاءات في دراسة كيفية انتشار الإسلام والدافع إلى ذلك في إيران والروم والهند والشرق الأقصى في القرون الأولى وخلال السنوات الألف الماضية، فإن الصورة المشرقة لآلاف المفكرين الشرقيين والغربيين المعاصرين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي هي حجتنا الموجهة لإثبات جاذبية الإسلام.

لقد كانت المسيحية، سواء الكنيسة الكاثوليكية، أو الفرق المسيحية الأخرى تتمتع منذ حوالي أربعة قرون بمؤسسة إعلامية مستقلة ومنظمة. ففي كل سنة تقوم بتدريب وتأهيل مجموعة

من القساوسة بسياسات معينة سلفاً وتبعثهم إلى أقصى مناطق العالم لأداء مهام إعلامية بعد تخصيص نفقات باهظة للغاية. وتتمتع المؤسسة الإعلامية المرتبطة بالمسيحية بدعم الدول المسيحية الكبرى، وإذا ما نجحت في كسب شخص ما إلى الديانة المسيحية فإنها توفر له جميع التسهيلات المادية. ومع ذلك، فإن انتشار المسيحية توقَّف تقريباً استناداً إلى دراسات الأوروبيين أنفسهم، ولم يعد لنشاط القساوسة الإعلامي تأثير كبير في انتشار المسيحية حتى في المناطق المزدهرة السابقة، مثل بعض البلدان الإفريقية.

وقد جاء في كتاب دائرة المعارف المسيحية الذي طبع في مجلدين، بصراحة أن هناك الآن ٤٣٧ م (أربعمائة وسبع وثلاثين) إذاعة كاثوليكية في إيطاليا تنشط في مجال الدعاية للمسيحية باللغات المختلفة ولكن الفرار من المسيحية ما يزال مع ذلك أمراً مسلماً به!

وفي المقابل نرى أن الدين الإسلامي ما يزال يواصل انتشاره حتى في أكثر بلدان العالم تطوراً رغم عدم تمتع المسلمين بمؤسسة إعلامية منظمة وافتقارهم إلى المخصصات والإمكانيات المالية، حيث يزداد الإسلام يوماً بعد آخر تفوقاً وانتشاراً حتى دفع القوى المسيحية الكبرى إلى الدهشة الممزوجة بالقلق.

ما هو سر هذا الانتشار؟

هذا السؤال مطروح بالدرجة الأولى حتى بالنسبة إلى المسيحيين أنفسهم. ومما يبعث على السعادة وجود وجوه مشرقة وبارزة في عالم العلم والأدب ومفكرين معروفين من حملة الأقلام بين حشود المعتنقين للإسلام، حيث أجابوا بصراحة عن ذلك السؤال في آثارهم المكتوبة.

وما أريد أن أستعرضه في هذه المقالة يمثل نفس المواضيع التي جاءت في كتابات المفكرين الذين اعتنقوا الإسلام بعد البحث والدراسة، وسأحاول أن أبينه استناداً إلى النقل الموثق.

تُظهر دراسة آثار المفكرين المعتنقين للإسلام أن عناصر الجذب في الإسلام مختلفة ومتنوعة بالنسبة إليهم، ولكن هناك عدة ملاحظات مشتركة في غالبية آثارهم وعلى سبيل المثال فإن معظمهم يتحدثون عن بساطة أصول الإسلام وعن انسجام هذه الأصول مع العقل والمنطق. ويشير البعض إلى العدالة والمساواة في الإسلام، إلا أن ما يتفقون عليه جميعاً هو المحبة والوداد. فالجميع يعترفون بأن الإسلام استطاع خلال فترة قصيرة أن يقيم الوئام والمحبة بين الفئات والأعراق والشعوب المختلفة ويحوّل العداء والنزاع إلى سلام حتى اعتبر بعضهم بعضاً إخوة.

ولعل من النادر أن نجد شخصاً عارفاً بالأدب العالمي، لم يسمع باسم (فوليتر)[1]. فقد أحدثت حياة هذا الفيلسوف الفرنسي تحولات كبيرة، وقد بلغته خلال مرحلة من عمره أي من عام ١٧٠٥ (ألف وسبعمائة وخمسة) إلى عام ١٧٤٢م (ألف وسبعمائة واثنين وأربعين) حيث كان يقضي مرحلة الابتدائية في مدرسة لويس الكبير (Lauis La Granel) معلومات سطحية عن الإسلام، ولأنه خامره شعور سلبي في تأليف مسرحية (فناتيسم) القبيحة والخرافية، فقد ذكر نبي الإسلام ﷺ بشكل أثار غضب الجميع حتى أتباع الأديان الأخرى[2].

وقد بلغت انتقاداته للإسلام من الشهرة بحيث لقّبه عدد كبير من الكتاب بـ «عدو محمد»[3] ولم يكتفِ فوليتر بالنقد، بل سعى من أجل أن يدرك سر انتشار الإسلام وتقدم المسلمين الكبير. فقد عمد في المرحلة التالية من عام ١٧٤٢ (ألف وسبعمائة واثنين وأربعين) حتى

[1] فرانسوا ماري آرونة المعروف بفولتير (Voltaire francoisMarie Aroute) (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) الفيلسوف الفرنسي وأحد أكبر شخصيات فرنسا في القرن الثامن عشر (فرهنَك معين).

[2] عرضت مسرحية (فناتيسم) عام ١٧٣٩ (ألف وسبعمائة وتسعة وثلاثين) بعنوان (Mohamet ou le fantisme) وأثارت منذ البدء غضب الجميع حتى البابا نفسه.

[3] جديدي، دكتور جواد، صداقت ولتر درستايش از اسلام، طبع في مجموعة مقالات «رهروان حقيقت»، النشر الجامعي، طهران، ١٣٨٠ش.

عام ١٧٦٣م (ألف وسبعمائة وثلاثة وستين) إلى البحث والدراسة في هذا المجال ودرس بفضل المثابرة العجيبة التي كان يتمتع بها، المصادر والآثار ذات العلاقة بحضارة الشعوب الشرقية، وكانت النتيجة أن الآثار التي نراها في هذه المرحلة من حياته تدل كلها على نضجه وتشهد على أنه توصل إلى أفكار عميقة بشأن انتشار الإسلام وتحول معتقدات المسلمين وكذلك جذور بعض الآداب والتقاليد الإسلامية، وأنه أدرك الحقائق . ونحن نرى في مقدمة الطبعة الجديدة مسرحية (فناتيسم) ١٧٤٨م (ألف وسبعمائة وثمانية وأربعين) أن فولتير قد تغير تماماً فقد ذكر مواضيع لا تشبه أبداً آثاره السابقة.

ولقد واجه تحولاً عجيباً فيما يتعلق بالإسلام، فلم يصف نبي الإسلام ﷺ بأنه منتحل وكاذب، بل اعتبره وبكل إعجاب رجلاً «أحدث أعظم ثورة على الأرض»[1]، وقد كتب هذه العبارة في مرحلة لم يعتنق فيها الإسلام بصراحة، حيث بدا وكأنه في حالة البحث والدراسة والسعي من أجل الوصول إلى الحقيقة. وأخيراً عمد إلى الإشادة بصراحة بمعتقدات المسلمين والدفاع عنها بمقتضى الوعد الإلهي الأكيد المتمثل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت:٦٩] . وقد بلغه ثناؤه على الإسلام حد التحمس في كتابه «مقبرة الخرافات» (Latombeau du fanatism) وكذلك كتاب «شرعيات رجل شريف» (La Catechisme de l,honnete home) .

وألف فولتير في أواخر عمره (١٧٧٢م) كتاباً عنوانه: "يجب أخيراً الميل إلى اتجاه ما"، ومراده أن من الواجب اعتناق دين من بين الأديان ! حيث اعتبر الإسلام في هذا الكتاب بصراحة أفضل من جميع الأديان على وجه الأرض.

وتشهد آثار فولتير الأخيرة على أن ما جذبه إلى الإسلام هو:

[1] كليات فلسفي اسبينوزا ، ج٢٤، ص ٥٥ نقلاً عنه هو نفسه.

أولاً: التوحيد الذي يمثل أول الأسس الاعتقادية للإسلام، حيث أشاد بهذا الأساس، وتبرأ من إله المسيحية الذي تقترن به أسرار متناقضة.

ثانياً: وقد جذبته بعد التوحيد تعاليم الإسلام فيما يتعلق بـ «التعايش المذهبي» و«التسامح الديني»، فهو يعتبر الإسلام «ديناً معقولاً وجاداً ونقياً ومحباً للبشرية ومعلّماً للمحبة» ويؤكد قائلاً إن ذلك يشير إلى حقيقة الإسلام[١].

وكان «هنري كونت دوبلين فيليه» من جملة النبلاء الفرنسيين المعروفين الذين أقبلوا على الإسلام في القرن الثامن عشر، وقد ترك آثاراً كثيرة، ودافع في آخر آثاره «حياة محمد» عن شخصية النبي الأعظم ﷺ دفاعاً أثار مشاعر الكثير من المسيحيين.

وقد كتب «دوبلين فيليه» بصراحة رغم ضغوط الدعايات المكثفة ضد نبي الإسلام ﷺ في الأوساط الغربية، قائلاً:

«كان محمد ﷺ مشرعاً كبيراً وحكيماً، حيث أتى لشعوب العالم بدين مهذّب. وقد بعثه الله العليم بكل شيء كي ينبه المسيحيين الضالين، ويحطم الأصنام، ويحمل الإيرانيين العبّاد للشمس على الطاعة وينشر دين معرفة الله من جدار الصين إلى سواحل إسبانيا»[٢].

وكتب في موضع آخر قائلاً:

«لم يتحقق ما قام به محمد ﷺ إلا في ظل النبوغ العظيم الخارق الذي كان الله قد منحه إياه. لقد كان محمد ﷺ يتمتع بسجايا سامية وفصاحة تفوق قدرة البشر، حتى كان باستطاعته أن يقنع بسهولة أكثر أهل زمانه جهلاً وأكثرهم حكمة ويجعلهم يعتقدون بالدين الإسلامي»[٣]، وإن دينه

[١] كليات، ج٢٨، ص ٥٤٧ نقلاً عنه نفسه.

[٢] Boulainvilliers, Henri comte de… La vie de Mahomet, Amsterdan, ١٧١٣,p.١٧٧.

[٣] نفس المصدر، ص ١٦٤.

ينسجم مع فطرة الإنسان إلى درجة أنه «ليس بحاجة إلى الإكراه والإجبار من أجل الدعوة إليه. فيكفي أن يقنع الناس بأصوله ومبادئه كي يعتنقه الجميع».

ولذلك فقد استمكن الإسلام خلال مدة تقل عن ٤٠ (أربعين) عاماً في قلوب نصف شعوب الأرض، «فقد قارب إلى حد الأخوّة بين قلوب أفراد الأمة الذين لم تكن تربطهم أية علاقة وحوّل العداوة إلى مودة ومحبة»[١].

ولحسن الحظ فإن الباحثين في الداخل والخارج أثبتوا حقيقة أن دافع اعتناق الإيرانيين للإسلام في القرون الهجرية الأولى، لم يكن قوة السيف بأي شكل من الأشكال، بل إن دافعهم كان بسبب ظلم الحكام الذين أقاموا السلطة على الدين من جهة، وكانوا من جهة أخرى يفرضون الدين على الناس لا بالمحبة وإنما بالعنف والقوة.

ومع ذلك فإن كاتب هذه السطور لا يدّعي أبداً أن الإيرانيين اعتنقوا الإسلام خلال فترة قصيرة من دخول الإسلام أرضهم، فهذا الادعاء ليس منطقياً كما أنه لا يمكن الدفاع عنه، فلاشك في أن اعتناق الإيرانيين للإسلام تمّ تدريجياً، ولكننا نتعجب من الكتّاب الذين اعتبروا انتشار الإسلام نتيجة قوة السيف، فبغض النظر عن أن هذا الادعاء يفتقر إلى الأسباب والشواهد، فإنه يعد إهانة لأمة بأكملها وتجاهلاً لذكاء الإيرانيين وقدرتهم على التقييم والتحليل. صحيح أن القوى الحاكمة للمسلمين ارتكبت في بعض البلدان باسم الجهاد المقدس أعمالاً وسلوكيات منحرفة إلا أن ذلك لا يحمل أي حجة قانونية وفقهيه للجيل المعاصر. ولكن الدراسات وإن كانت عابرة وقصيرة فقد أظهرت أن أهالي تلك البلدان عادوا إلى سابق عهدهم بمجرد حدوث الفتور في السلطة الحاكمة والإحساس بالحرية وزوال الضغوط والقوة. فقد تغلب العثمانيون على أثينا، عاصمة اليونان عبر استخدام القوة وسفك الدماء، وحكموا هذا البلد لحوالي ٤٥٠ (أربعمائة وخمسين) عاماً، وهدموا

[١] Boulainvilliers, Henri comte de… La vie de Mahomet, Amsterdan, ١٧١٣, p.١٤٤.

الكنائس، أو حولوها إلى مساجد . ولكن سكان تلك المنطقة عادوا إلى المسيحية الأرثوذوكسية بمجرد سقوط الإمبراطورية العثمانية . حتى إنني لم أجد أثراً لمسجد ، أو سكّاناً مسلمين خلال الرحلتين اللتين قمت بهما إلى هناك، في حين أن ذلك لم يحدث في إيران .

والحقيقة أن من الواجب البحث عن أسباب اعتناق الإيرانيين للإسلام في مضمون الإسلام وخصائصه التي لم تكن تحملها الأديان الأخرى، أو الأديان الشائعة آنذاك . إن بساطة المبادئ الإسلامية وانسجام هذه المبادئ مع العقل والمنطق والأهم من كل ذلك العدالة والمساواة والحرية وأخيراً المحبة والوئام اللتان كانتا تتضمنهما تعاليم الإسلام، كل ذلك لعب دوراً في جذب الإيرانيين إلى الإسلام . فعامل المحبة والمودة يعد سر الجاذبية في الإسلام .

وقد نقل عن الفيلسوف الألماني هيغل أنه اعتزل الدين اليهودي لأن علاقة الإنسان بالله في هذا الدين هي بمثابة العلاقة بين العبد والسيد ، وكلا العالمين منفصلان عن بعضهما تماماً ، فالله يصدر الأوامر والإنسان ينفذها دون نقاش، ويتضمن الدين اليهودي الأوامر الإلهية، أي الوصايا العشر وإذا ما لم يتبع الإنسان هذه الوصايا ولم يتمثل لها فإنه سيبتلى بالعذاب الإلهي .

والحقيقة أن الإله المخيف الذي يفتقد للمحبة لا يمكن أن تنجذب البشرية إليه كما أن عبادته في ظل مثل هذه العلاقة لا تؤدي إلى الكمال . ولذلك فإن الإسلام يقيم العلاقة بين الإنسان والله تعالى .على أساس العبودية التي بمعنى الولاية: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:٢٥٧] ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد :١١] . والمحبة لا مكان لها في العلاقة بين العبد والسيد ويحل محلها الخوف والرعب والتهيّب، في حين أن العلاقة القائمة على الولاء تقوم على المحبة بين الطرفين: ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤] .

وهناك قول منقول عن علي بن أبي طالب(ع) في نهج البلاغة قسّم فيه عبادة العابدين إلى

ثلاثة أقسام، حيث يقول(ع): «إن قوماً عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار وإن قوماً عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد وإن قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار»[1].

وجاء في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان أن الناس خلقوا سواسية، ثم يُستنتج أن من الواجب أن يتآخوا. ولكنه لم يوضح أبداً سبب التلازم المنطقي، وبناء على ذلك يبقى السؤال التالي: لماذا يجب أن يتعايشوا كالأخوة إن كانوا قد خلقوا متساوين؟

ولكن القرآن الكريم اعتبر الأخوّة نتيجة الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويطرح القرآن الكريم فكرة أن المعرفة الإيمانية هي وحدها التي تؤدي بالإنسان إلى الإحساس بالأخوّة.

ذلك لأن الأخوّة تشتمل على ثلاثة عناصر:

أ- كمال المحبة

ب- منع التفاخر القومي

ج- منع التفاخر الطبقي.

فالأخوان يجب أن تسود بينهما المحبة بكل معنى الكلمة، ولا يمكن أن يتفاخرا على بعضهما البعض من الناحية القومية، أو الطبقية، ذلك لأن ظهور هذا النوع من المفاهيم إما أن يكون ناجماً عن الجنس والعرق ومن المؤكد أن الأخوين لا يختلفان عن بعضهما من حيث العرق، أو أن يكون مصدره المراكز المتعلقة بالمال والثروة بالمعنى الأعم. ويؤكد القرآن أن الشعور بالأخوة من شأنه أن يزيل التفاخر الطبقي وأن تكريس الأحاسيس والعواطف هو السبيل الوحيد لزوال الشعور بالامتيازات الاجتماعية.

ويرى القرآن الكريم أن إيجاد الألفة والمحبة هو من مظاهر قوة الإسلام ويعتبرهما من النعم

[1] نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧.

الإلهيــة الكــبرى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ [آل عمران:١٠٣]، والعداوة والبغضاء هما من المظاهر التي يتسبب بها الشيطان الرجيم: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ ﴾ [المائدة:٩١].

وقد وردت هذه العبارة في أحاديث أهل البيت بتعابير مختلفة بلغت حد التواتر كقولهم: «هل الدين إلا الحب (أو) الدين هو الحب والحب هو الدين»[١].

وفي ختام هذه المقالة أودّ التأكيد على هذه الملاحظة وهي أن التعريف بالإسلام على أنه دين العنف إنما هو مؤامرة عملت الصهيونية ومازالت تعمل على تنفيذها، وللأسف الشديد فإن بعض الأصدقاء الجاهلين يؤكدون عليها أيضاً.

[١] سفينة البحار، مادة حبب.